ملامح الحسّ القومي
في العصر الجاهلي

د. أحمد إسماعيل النعيمي

توطئة:

قد يبدو – للوهلة الأولى – أن الفرد الجاهلي ما كان يعرف ضمن نشاط حياته اليومية أفقًا أوسع من أفق قبيلته وانتماءً أبعد منها، ولكن من يدقق النظر في تكوين العرب الاجتماعي، يتلمس وحدة معينة ربطت بينهم على الرغم من كونهم قبائل متعددة، تجلت في النسب الواحد، والأرض المشتركة، واللغة الأدبية الموحدة، وكذلك في العادات والتقاليد الاجتماعية، والشعائر الدينية، وهذا ما عناه الجاحظ في قوله: «كلهم عرب لأنهم استووا في التربة، وفي اللغة، والشمائل والهمة، وفي الأنفة والحمية وفي الأخلاق والسجية، فسُبكوا سبكًا واحدًا، وأُفرغوا إفراغًا واحدًا، وكان القالب واحدًا، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط»[1]. وهم الذين أُنزل القرآن الكريم بلسانهم، في قوله سبحانه وتعالى ﴿إنّا أنزلناه قرآنًا عربيًا﴾[2].

تجمعات القبائل العربية:

غير أنّ هذه المقومات الأساسية لذلك التوحد، افتقرت إلى من يستثمرها في لَمِّ شمل ذلك الكيان الأساسي المشتت في الظاهر، مما جعل الإحساس بالانتماء القومي العربي الواسع ضمنيًا.. أو التعبير عنه بعفوية خلال الظرف الاعتيادي بعامة، والاستثنائي بخاصة، وهو إحساس نستطيع أن نحدد ملامحه

(1) رسائل الجاحظ،لأبي عثمان عمروبن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون:١/١١.
(2)سورة يوسف، الآية ٢.

من خلال أحداث منها: أن القبائل العربية– دون استثناء – ارتضت لنفسها أنْ تجتمع قلوبها حول مكة لغرض الحج عند الكعبة، حيث يطوفون حولها، ويعتمرون بالبيت أسبوعًا، ويمسحون بالحجر الأسود، ويسعون بين الصفا والمروة، مرددين تلبية واحدة أشبه ما تكون بهتاف قومي موحد[١]، فضلاً عن ذلك نجد اختلافهم إلى أسواقهم المنتشرة في أرجاء شبه الجزيرة العربية، ينتقلون من سوق إلى أخرى ولعل أشهرها سوق «عكاظ» وموقعها بأعلى نجد قرب عرفات التي كانت منتدى اجتماعيًا وأدبيًا، فضلاً عن كونها سوقًا تجارية وذلك لمح إليه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا بُني القبابُ على عُكاظ وقــامَ البيــعُ واجتمــعَ الألــوفُ

تُواعِدُنَا عكاظ لَنَنْزِلَنْهُ ولم تَعْلَــــمْ إذًا أني خليـــــف[٢]

ومن الأسواق الأخرى المعروفة عند العرب سوق (دومة الجندل)، وموقعها بين الشام والحجاز, وسوق (مجنة) بمرِّ الظهران قرب جبل بأسفل مكة, وسوق (ذي المجاز) وكانت قريبة من عكاظ, وسوق (حُباشة) بتهامة. ومن الأسواق التي اشتهرت في أطراف شبه الجزيرة سوق (المشقّر) بهجر وكذلك أسواق عُمان (دبا) و(دما) و(صُحار)، وفي حضرموت كانت سوق (الرابية) وسوق (الشحر). أما اليمن فقد اشتهرت بسوقي (عدن) و(صنعاء)[٣].

ولم يقتصر أثر أسواق العرب على التبادل التجاري فحسب, بل تعداه

(1) ينظر المحبر، لابن حبيب، ص ٣١١ وما بعده.

(2) شرح أشعار الهذليين، لأبي سعيد السكري، ١/ ١٨٣.

(3) بغية الاطلاع الواسع على أسواق العرب ومواقعها ومواعيد اقامتها, ينظر: الأزمنة والأمكنة, للمرزوقي: ص ١٦٥/٢وما بعدها, ومعجم البلدان, لياقوت الحموي. المجلدات: ٢١٠/٢, ٢٦٤/٢, ٤٢٦/٢, ٤٨٧/٢, ٥٨/٥.

إلى ما هو أهم من ذلك «فأعظم آثار الأسواق –قبل البعثة– هو هذا التوحيد اللغوي, الذي كان للشعراء والحكام فيه على مدى سنين متطاولة أبلغ الأثر في انتقاء الألفاظ وشيوعها في القبائل»(١). فضلاً عن انها كانت سببًا لحل كثير من الخصومات, بل إنّا نسمع منادين فيها ينادون ذوي الحاجات لتُقضى حاجاتهم، وحكامًا معلومين يفضون المشاكل بين القبائل, وحسبنا أن نذكر أن «أكبر حربين أهليتين هما (البسوس) و(داحس والغبراء) تم إخمادهما في هذه الأسواق. فقد اصطلح بكر وتغلب في سوق (ذي المجاز) وأخذا على نفسيهما العهود والمواثيق»(٢). وهذا ما نستشفه من قول الحارث ابن حلزة اليشكري عندما أشار إلى هذا الصلح في معلقته:

واذكروا حِلف ذي المجاز وماقُدِّم فيـــه العُهـــودُ والكُفـــلاء
حَذَرَ الجوْرِ والتَّعدِّي ولن ينْ قُـضَ مـا في المهَـارقِ الأهـواءُ(٣)

واصطلح العبسيون والذبيانيون في سوق عكاظ. فهدأت حرب داحس والغبراء فقال زهير بن أبي سلمى في هذا الصلح:

أُلا أبلغ الأحلافَ عني رسالةً وذبيـانَ هـل أقـسمتُم كُـلَّ مُقْـسَمِ
فلا تكتُمنَّ الله ما في نفوسِكُم ليَخفـى ومهمـا يُكْـتمِ اللهُ يَعْلَـم(٤)

دعوات السلام والتآخي:

ولنا في امتناعهم عن القتال في الأشهر الحرم «المحرم، رجب، وذي القعدة، وذي الحجة» مدلول آخر على ذلك التوحيد، ومظهر من مظاهر اجتماع كلمتهم

---

(1) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام, سعيد الأفغاني, ٢٠٨.

(3) شرح القصائد العشر, التبريزي, ص ٣٩٣.

(4) شرح القصائد العشر: ص ١٧٨– ١٧٩.

على أمر من الأمور، فحين تضع العرب فيهن سلاحها يعم الإخاء والسلام، ويكثر اختلاط بعضهم ببعض، فيؤدي في كثير من الأحايين إلى تصافي القلوب وتهدئة النفوس، وعندما يحاول نفر انتهاك حرمة هذه الأشهر يُزدرَى فعله باتفاق الكلمة، وذلك ما يفسر لنا دواعي تسمية حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب «الفجار» لفجورهم باقتتالهم في الأشهر الحرم[1] ، لا بل إن نبذ الحرب بين القبائل بوجه عام كان دليلاً جسد مفهوم الحس القومي الذي عبرت عنه معظم القبائل العربية، وبإمكاننا أن نرصد ذلك في لمحات ذات مدلول منها: أن القبائل كانت تحسب حسابًا دقيقًا قبل أن تقرر خوضها، وكان التشاور بين وجهائها والبحث عن وسائل لتفاديها، والتحلي بالصبر، والصفح عن الإساءة الموجهة إليها، أسلوبًا يكشف عن رأيها في تفادي الحرب، لشعور هذه القبيلة أو تلك بأنها سوف تقاتل من تربطه بها صلة قربى أو رحم ولعل الفند الزّمّاني أفضل من رسم أبعاد هذا التوجه في قوله:

كَفَفْنا عن بني هندٍ وقُلْنـــا القـــومُ إخـــوانُ
عسى الأيام أنْ يرجعْ نَ قومًـــا كالـــذي كـــانوا[2]

وما دمنا نتحدث عن ظاهرة الحرب فلا بد من التنويه بموقف رفض الحرب في دواوين الشعراء، الذي يتكرر بصيغ مختلفة، ويعبر- في الوقت نفسه- عن تمسك قبائلهم التي ينتمون إليها به. فنراهم تارة يتحاشون أن يتحمّلوا وزرها، وهو موقف عنترة في قوله:

(1) ينظر الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ط صادر: ١/٥٨٩.
(2) شعر الفند الزّمّاني، جمع ودراسة د. حاتم الضامن، فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٤، م٣٧ لسنة ١٩٨٦، ت ٩/ص ٢٥.

فإن تكُ حربُكم أمستْ عوانًا فـإنّي لم أكُـنْ ممـن جناهـا [١]

أو يكونوا سببًا في بعثها تارةً أخرى، وفي هذا الشأن قال قيس بن الخطيم:

وكنت امرًا لا أبعثُ الحرب ظالما فلما أبوا أشعلتها في كل جانب[٢]

ولا يقتصر الأمر على هذا الاتجاه، إنما يمتد إلى معالجة قضية الحرب من منطلق يجتمع فيه الإحساس ببشاعتها وأهوالها، ولعل أفضل من رسم أبعاد هذه الصورة الشاعر الفارس عمرو بن معد يكرب القائل:

الحربُ أول ماتكونُ فتيّةً تسعى ببزتها لكُلِّ جهولِ
حتى إذا حميت وشبَّ ضرامها عادت عجوزًا غيرَ ذات حليلِ
شمطاءَ جزَّت شعرها وتنكَّرتْ مكروهةً للشَّمِّ والتَّقبيل[٣]

أو ما يتمخض عنها من نتائج تضر بالمتحاربين على السواء, وتلك هي الحقيقة التي سجلها زهير بن أبي سلمى في مثل قوله:

وما الحربُ إلاّ ما عَلِمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثُوها تبعثوها ذَمِيمَةً وَتَضْرَ إذا ضَرَّيتُموها فَتَضْرَم[٤]

فضلاً عن ذلك كله, فإننا لا نعدم أمثلةً تكشف عن طموح الشعراء في إحلال السلام, والدعوة إلى الصلح, ومثل هذا يقال في موقف قيس بن زهير الذي عبر عنه في قوله:

فيا ابنيَ بغيضٍ راجعِا السلمِ تسلما ولا تُشمتا الأعداء يفترق الشملُ

(1) ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد: ٢٨٩، والحرب العوان: التي يقع فيه القتل مرة بعد مرة.
(2) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب: ق ٤/ ص ٣٢
(3) ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي, صنعه هاشم الطعان:ق٦٦/ص١٥٦.
(4) شرح ديوان زهير, ١٨.

وإن سبيلَ الحرب وعرٌ مضلّة وإن سبيل السلم آمنةٌ سهْل[١]

ومن الجدير بالذكر أنّ دعوة العربي إلى السلم لم تكن احترازًا من هزيمة، أو خوفًا من مرتقب, إنما نابعة من نظرة شمولية يلخصها قول العرب «الحرب غَشوم»[٢]... ومع تمسك العرب بهذا المبدأ, يبقى الشعراء أكثر الناس تأثيرًا في النفوس وأقدرهم تعبيرًا عنه, لما يمتلكونه من أساليب الكلام التي بفضلها استطاعوا أن يطفئوا كثيرًا من حروب استعرت أو كادت تستعر, وتلك هي الحقيقة التي سجلها الأعشى في ميميته إذ يقول:

بني عمِّنا لا تبعثوا الحرب بيننا كردّ رجيع الرّفض وارموا إلى السِّلمِ
وكونوا كما كنّا نكون وحافظوا علينا كما كنّا نحافظ عن رُهْم [٣]

وهذا ما ينبهنا إلى حقيقة جنوح العربي إلى السلم ودعوته إلى نبذ الحرب اتقاءً لويلاتها.

ولم يقتصر الأمر على الحرب بل تجاوزه إلى الدعوة إلى الحفاظ على وحدة الجماعة وتماسكها, بغية لَمِّ الشمل ونبذ الخلافات. وبهذا الوعي يكون لنا أن نتأمل مثل قول النابغة الذبياني الذي نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس ومفارقتها ديار أبناء عمومتها من ذبيان:

أبلغ بني ذبيان أنْ لا أخًا لهم بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأظلما
همُ يَرِدونَ الموتَ عند لقائه إذا كان وِرْدُ الموتِ لا بُدَّ أكْرَما[٤]

ولنا في تحالفهم مظهر من مظاهر التجمع والتوحيد, فكانت القبائل تسعى

(1) شعر قيس بن زهير, جمع ودراسة الدكتور عادل البياتي, مطبعة النجف, ص٤٦.
(2) العقد الفريد, ١/١١٠.
(3) ديوان الأعشى الكبير, تحقيق: محمد محمد حسين, ق٥٨/ص ٣٠٥, ورُهم: اسم حيٍّ.
(4) ديوان النابغة الذبياني, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, ق١٧/ص١٠٤.

إلى المحالفات لما رأت ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة إذ «حالف القليل منها الكثير» بقصد التضامن والتآزر في الدفاع عن النفس ضمانًا لمصالحهم, على أن أهم ما يوجب الالتزام بين المتحالفين هو «النسب» الذي يشعر معه أفراد الحلف أنهم من أسرةٍ واحدة, حتى عُدَّ النسب كناية عن حلف, وقد فسرت أسماء بعض من هذه القبائل بأنها كانت في الأصل أحلاف من قبائل شتى, كالعبّاد وبني غسان وتنوخ وسواها[1], والناظر في الشعائر التي اقترنت بعقد الأحلاف تفسر لنا حقيقة هذا الشعور الذي جعلهم لحمة واحدة, فهذه الشعائر وإن تنوعت أضفت على الحلف مسحة من القداسة تجعل كل انتهاك له وزرًا عظيمًا وخيم العواقب, وقد أكد الجاحظ هذه الحقيقة عندما ذكر أن المتحالفين كانوا «يدعون إلى من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيمًا للأمر, وتبعيدًا للنسيان»[2]، ويبدو أنّ وفاءهم للحليف وعدم الغدر به، وتمسكهم بالعهد الذي يقطعونه على أنفسهم، جعل المتحالفين يعيشون في أمان واستقرار ويزدادون قربًا على مر الأيام، حتى غدا الوفاء للحليف من أبرز مفاخرهم، وأجلى محاسنهم ووصل استهجانهم للغدر أنهم كانوا يرفعون للغادر لواء بسوق عكاظ لتعرفه العرب وهذا ما نستشفه من قول الحادرة:

فسُمَيَّ ويحكِ هل سمعْتِ بغَدْرةٍ رُفــعَ اللــواءُ بهــا لنــا في مَجمــعِ
إنّا نعفُّ فلا نريب حليفنا ونكـفُّ شُحَّ نفوسِنا في المطمـعِ[3]

ولعل تقديم الإغاثة الذي تلتزم به كثير من القبائل العربية فيما بينها، خلال مواسم الجدب والقحط بخاصة، أوضح دليل على إيمان هذه القبائل

(1) ينظر: الاشتقاق, ابن دريد: ١١/١ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, ٣٨١/٤.
(2)الحيوان، الجاحظ،٦٩/١
(3)ديوان شعر الحادرة، تحقيق: الدكتور ناصر الدين، الأسد، ق ٣، ص ٥١.

بمبدأ النصرة المتبادلة فيما بينها، إحساسًا منها بأواصر الشد التي تجمعهم.

ومن هنا يمكننا أن نرجح حقيقة فحواها أن أمثلة المديح التي تطالعنا في عشرات الدواوين الجاهلية دارت حول المثل العليا والقيم الإنسانية النبيلة التي حاول الشعراء إعمامها، والدعوة إلى التمسك بها من خلال تجسيدهم لها في شخصيات ممدوحيهم الذين طبقوها على أرض الواقع، حتى استحقوا بذلك أن يحتلوا أعلى مراتب العز والشرف، وأن يضرب بهم المثل.

صنيع قتادة بن سلمة الحنفي الذي أتاه قوم الشاعر طرفة بن العبد يشكون له ما أصابهم من جفاف حلَّ في ديارهم، فما كان منه إلا أن بذل لهم مالَه، وأعانهم على تجاوز محنتهم، وهذا الموقف دون سواه هو الذي وضعه طرفة نصب عينيه حين خصه بمديح نابع من عرفان بالجميل في قوله:

أبلغْ قتادةَ غيرَ سائِلِهِ منــه الثــوابَ وعاجِــلَ الــشَّكْمِ
أني حَمِدْتُكَ للعشيرة إذْ جــاءت إليــك مُرِقّــةَ العظــمِ
ألقوا إليك بكل أرملةٍ شَــعْثَاءَ تحمــل مَنْقَــعَ الُــبرمِ
فسقى بلادك غيرَ مُفسِدها صــوبُ الغمــام وديمــةٌ تهمــي[1]

التلاحم العربي..والتحديات الخارجية:

إذا كان لنا أن نطمئن إلى معطيات ذلك الواقع اليومي الذي عاشه العرب، فلا نخطئ إذا قلنا أنه على الرغم من تمسكهم بالانتماء القبلي الضيق الأفق بوصفه واقعًا أملته ظروفٌ بيئية واجتماعية خارجة عن إرادتهم، ظلوا متطلعين إلى من يسعى لإثارة الهاجس القومي في نفوسهم، ويشعرهم بمدى الحاجة إليه،

(1) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: كرم البستاني، ص ٨٨. الشكم: العرض، مرقة العظم: هزيلة شعثاء، مجزاة الرأس، البرم، الواحد برمة، القدر من الحجر، الصوب: المطر.

بالاستفادة من أدوات تعمل عملها في هذا الاتجاه[١]، ولما كانت الأداة ممثلة بتلك اللغة الأدبية التي سمت فوق لهجات القبائل واصطنعها الشعراء في قصائدهم، غدت هذه اللغة أداة الشاعر إزاء ذلك الواقع، وحسبنا أن نعلم أن «هؤلاء الشعراء الكبار بتجوالهم في أرجاء شبه الجزيرة العربية. وارتباطهم بتجمعاتهم الكبيرة قد أسهموا بنصيب كبير في خلق شعور قومي بين قبائل العرب الكبرى، وفي تأصيل كثير من القيم الأخلاقية والاجتماعية اللازمة لنشأة أي شعب متماسك متحضر، وفي التمكين للغة عربية عامة تعلو على سائر اللهجات وتصبح قادرة على التعبير عن مقومات ذلك الشعب»[٢].

ولقد كانت لهذه المميزات التي يتفرد بها الشاعر أهمية تذكر في حياة العرب، إذ «كان من بين أصحاب الرأي في كل قبيلة أفراد يبكون الوحدة المفقودة بكاءً يأخذ صورة الثورة على كل من تسبب في ذهابها، وأولئك هم شعراء الجاهلية الذين كانوا أبطال الاستقلال وطلاب الوحدة في تلك الفترة»[٣].

بيد أن الهاجس القومي ظل وليد بواعث اقتضتها ظروف خاصة أملت على أبناء القبائل التصريح به بصورة عامة, والشعراء منهم بوجه خاص, وتأتي التحديات الأجنبية التي كانت تواجه العرب في بقاع مختلفة من شبه الجزيرة العربية في مقدمة هذه البواعث المسهمة في إذكائه[٤].

(1) تنظر المتابعة الواسعة في هذا الاتجاه في مقالة الدكتور محمود الجادر، الموسومة «الشاعر العربي– قبل الإسلام– وتحديات العصر» مجلة المورد العدد الثاني، المجلد(١٥)، لسنة ١٩٨٦.

(2) في الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبد القادر القط، ص ١١.

(3) تاريخ الشعر العربي من آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، ص ٣١.

(4) ينظر: تاريخ الأدب العربي– قبل الإسلام– الدكتور نوري القيسي وزميلاه: ص٢٠٩ ومابعدها.

ففي مظان التاريخ والأدب شواهد كثيرة من التلاحم العربي في وجه تلك التحديات وحسبنا أن نقف على حملة أبرهة على مكة – عام الفيل– إذ كان لها تأثير واضح في إثارة الشعور القومي, حين اجتمعت العرب من كل حدب وصوب تأهبًا لمواجهة الخطر المهدد كيانهم ووحدتهم..فسلموا زمام أمرهم لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ليتخذ ما يراه مناسبًا ويقرر أمر مواجهة ذلك الغازي الطامع[١] . وتشير المصادر إلى وقفة عبد المطلب المشهورة, عندما جمع العرب, ووقف بباب الكعبة مخاطبًا إياهم في قوله:

يا أهلَ مكةَ قد وافاكم ملكٌ مع الفيول على أنيابها الزَّردُ
يريد كعبتكُم والله مانعه كمنع تُبّع لما جاءها حرد[٢]

ويشاء الخالق سبحانه وتعالى أن يتكفل بحماية بيته العتيق, فيرسل على الغازين ﴿طيرًا أبابيل. ترميهم بحجارةٍ من سجيل, فجعلهم كعصف مأكول﴾[٣].

وهناك من يؤكد أن الهدف من حملة أبرهة كان هدفًا سياسيًا وراءه غايتان, أولاهما: مدّ نفوذ الأحباش على بلاد العرب جميعها, وثانيتهما: تمهيد الطريق (للأحباش) إلى الاتصال بالروم ومساعدتهم, بوصفهم حلفاء الأحباش[٤].

وتظهر الحركة التي تزعمها القائد العربي «معد يكرب بن أبي مُرة» المشهور بـ«سيف بن ذي يزن»، ضد احتلال الأحباش لأرض اليمن, التفافًا عربيًا عليها, فبعد أن تحقق لسيف ما كان يطمح إليه, استبشرت العرب جميعًا بهذا النصر, وذهبت وفودها مهنئة يتقدمها عبد المطلب بن هاشم جدّ الرسول

(1) ينظر: تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك), ١٣٠/٢.
(2) مروج الذهب, للمسعودي, ٤٧/٢.
(3) سورة الفيل, الآية/٤.
(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, ١٩٧/٤.

ﷺ, الذي دخل عليه وألقى على مسامعه خطبة طويلة. عبَّر بها عن مشاعر العرب جميعهم – جاء فيها «أنت رأس العرب, وربيعها الذي به تُخصِب, وملكها الذي له تنقاد, وعمودها الذي عليه العماد, ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد»[١]. ولقد ظل صنيع «سيف» يستدر قصائد مديح لا حصر لها, أخذت تنشدها العرب جيلاً بعد جيل, حتى غدت سيرته أسطورة شعبية, وانتصاره مبعث فخر وزهو الشعراء العرب, وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى مدائح أحدهم, وهو أمية بن أبي الصلت, فقد انطلق صوته في وسط شبه الجزيرة العربية, مهنئًا ومكبرًا هذا النصر في قوله:

لا يطلبُ الثأرَ إلا كابنِ ذي يزَنٍ في البحـر خـيم للأعـداء أهـوالا
أتى هِرْقَلَ وقد شالت نعامَتُهُ فلم يجد عنده النصرَ الذي سالا[٢]

ومن الوقائع التاريخية التي أدت إلى تلاحم العرب ونسيانهم خصوماتهم، وقت مواجهتهم التحديات الأجنبية, ما حدث في «يوم خزاز أو خزازى» فقد اتفقت كلمة قبيلتي بكر وتغلب على محاربة قبيلة مذحج, ومن والاها, إذ تذكر المصادر أن هاتين القبيلتين اتخذتا «جبل خزاز» موضع تجمع لهما, ثم أوقدتا نارًا على قمته ثلاث ليال علامة بينهما, وإشارة إلى اهتداء بقية القبائل العربية للانضمام إليهما. فكان أمرًا طبيعيًا في هذا التوحد أن يتحقق نصر العرب في «يوم خزاز» على قبائل اليمن , وتلهج به قرائح الشعراء زهوًا وافتخارًا وحسبنا أن نشير إلى بيت السفاح التغلبي لنتبين وقع النصر في نفسه عندما يقول:

(1) العقد الفريد, ٢/٢٥.

(2) أمية بن أبي الصلت –حياته وشعره– دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور, ق ١٥٨/ص٣٤٤-٣٤٥.

وليلة بتُّ أوقدُ في خزاز هـــديتُ كتائبًـــا مُتحـــيراتِ[١]

أما عمرو بن كلثوم فقد رسم صورة ذلك اليوم في معلقته بشكل يفصح عن أثر تلاحم أبناء العمومة في تحقيق النصر على أعدائهم, لاسيما هذه الأبيات:

ونحن غداةَ أوقد في خَزازى رفـــدنا فـــوق رِفْـــدِ الرافـــدينا
وكنّا الأيمنين إذا التقينا وكـــان الأيـــسرين بنـــو أبينـــا
فصالوا صَولةً فيمن يليهم وصـــلنا صـــولةً فـــيمن يلينـــا[٢]

ومن المواقف الأُخر الباعثة على إلهاب الحس القومي في نفوس العرب, ذلك الحدث الذي جسده الملك العربي «النعمان بن المنذر» في موقفه المعبر عن القبائل العربية من كل من يستهدف الشخصية العربية.

وقيل إنه «قَدِمَ على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين, فذكروا من ملوكهم وبلادهم, فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها»[٣].

وتشير المصادر إلى أن النعمان لما قدم الحيرة وفي نفسه ما فيها، مما سمع من كسرى من تنقُّص العرب وتهجين أمرهم, بعث إلى وجهاء العرب وأخبرهم بما حدث «فقالوا: أيها الملك وفقك الله ما أحسن ما رددت, وأبلغ ما حججته به, فمرنا بأمرك, وادعنا إلى ما شئت, قال: إنما أنا رجلٌ منكم, وإنما ملكتُ وعززت بمكانكم, وليس شيء أحبَّ اليَّ مما سدد الله بأمركم, وأصلح به شأنكم وأدام به عزَّكم, والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى

(1) تنظر أشعار ذلك اليوم واخباره في كتاب «نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (ط ليدن), ١٠٩٥/٢, وينظر: معجم البلدان (ط دار صادر) مادة خزاز.
(2) شرح القصائد العشر, ص ٣٥٢-٣٥٤.
(3) العقد الفريد, ٤/٢.

كسرى, فإذا دخلتم نطق كلُّ رجلٍ منكم بما حضره, ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه»[١].

ومن المواقف المشرفة الأخرى التي وقفها النعمان. وأكد من خلالها تمسكه بصلة الانتماء إلى العرب «عندما بعث كسرى إليه رسولاً يطلب منه أن يبعث إليه بابنته (هند) وبعض النساء العربيات, أجابه النعمان, «فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الغضاضة والشناعة [٢]».

ثم تمضي الخصومة بين النعمان وكسرى حتى دفعت به إلى التنقل بين القبائل العربية وقاءً من بطش كسرى والتماس وحدة هذه القبائل ضد توجهاته.

ولعل زهير بن أبي سلمى أفضل من رسم لنا صور تلك الأحداث وسجل جزئياتها, وكيف أن بني رواحة من (عبس) أبدت استعدادها لإجارة الملك والوقوف معه في محنته, في موقف ينبئ عن إحساس قومي لدى الشاعر ضمن قوله:

فلم أرَ مسلوبًا له مثل قرضه ... أقلَّ صديقًا معطيًا أو مواسيا
سوى أنّ حيًّا من رواحة أقبلوا ... وكانوا قديمًا يتقون المخازيا
يسيرون حتى حبّسوا عند بابه ... ثقال الروايا والهجان المتاليا
فقال لهم خيرًا وأثنى عليهم ... وودَّعَهُم وداعَ أنْ لا تلاقيا[٣]

ونتيجة انصراف بعض زعماء القبائل بأمور جانبية أنستهم قضيتهم الرئيسية هذه، يمضي النعمان- بعد تطوافه- إلى بلاط كسرى ليدفع حياته ثمنًا من أجل مواقفه من العرب، وسعيه لوحدتهم، وهذا ما اعترف به كسرى نفسه

(1) العقد الفريد: ٩/٢ –١٠.
(2) مروج الذهب, للمسعودي, ٢٥/٢.
(3) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٢٨٩- ٢٩١، القرض: الصنيع والإحساس.

في محاورة له جاء فيها:

«إنه قتل النعمان، لأن النعمان وأهل بيته واطؤوا العرب»[١].

وذلك عندما أمر كسرى بالنعمان، فحبس بساباط المدائن حتى مات فيه، وتلك هي الحقيقة التي سجلها الأعشى في قوله:

فذاك وما أنجى من الموت ربَّه بِساباط حتى ماتَ وهو مَحْزرَقٌ[٢]

وقيل: «أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة»[٣].

وفي خبر آخر أن كسرى قتل النعمان بن المنذر لقتله عدي بن زيد العبّادي.

ويقع موت النعمان من العرب وقع الصاعقة، وما ذلك إلا لمكانة النعمان من نفوسهم، وهي مكانة أملتها مواقفه القومية وتفانيه في سبيل عزّة العرب، فأعرب فحول شعراء القبائل العربية عن حزنهم، بهذا المصاب الجلل، معبرين من خلال رثائهم له عن مواقف القبائل العربية التي اجتمعت عليه كلمتها، فقد رثاه أكثر من شاعر منهم النابغة الذبياني في قصيدته اللامية التي يقول فيها:

قُلْ للهمامِ وخيرُ القول أصدقُه والدَّهرُ يومِضُ بعد الحال بالحال
ماذا رُزِئْنا به من حيّةٍ ذكر نضناضةٍ بالرّزايا صِلٍّ أصلال
وغَّالةٍ في دُجَى الأهوال إن نزلت خرَّاجةٍ في ذُراها غير زُمّالِ
ماضٍ يكون له جدٌّ إذا نزلت حربٌ يُوائلُ منها كلُّ تنبال[٤]

وتشاطر قبيلة بني عامر قبيلة ذبيان مشاعرها بهذه الرزيئة التي أصابتها، فيقف شاعرها لبيد بن ربيعة راثيًا النعمان في قصيدة طويلة معبرًا من خلالها عن الهاجس القومي لدى الشاعر وقبيلته على السواء، نجترئ منها هذه الأبيات:

(1) الأخبار الطوال، الدينوري: ص ١٠٩– ١١٠.

(2) ديوان الأعشى الكبير، ق ٣٣/ ص ٢١٩، وحزرق الرجل: أي حبسه.

(3) مروج: ٢٦/٢.

(4)ديوان النابغة الذبياني، ق ٣٢/ ص ١٦٥، نضناضة، حيّة مُنكرة، الدغّال: الدّخّال.

لِيبكِ على النّعمان شَرْبٌ وَقَيْنَةٌ ومُخْتَبِطاتٌ كالسّعالي أرامِلُ
له المِلكُ في ضاحي مَعَدٍّ وأسلمتْ إليه العبادُ كلّها ما يحاولُ
إذا مسَّ أسآرَ الطيورِ صَفَتْ له مُشَعشعةٌ مما تُعَتِّقُ بابلُ
فيومًا عُناةٌ بالحديد يفكُّهمْ ويومًا جيادٌ مُلْجَماتٌ قوافلُ[1]

لقد أيقن العرب أن كسرى كان وراء موت ملكهم النعمان الذي طالما عمل على وحدتهم, ووقف بوجه أطماعه ذابًا عنهم.

فكان لا بد من ملاقاة هذا الطامع انتقامًا ووفاءً لرجلهم الأول, ويبدو أن ذلك تحقق لهم, فعندما طالب كسرى بتركة النعمان المودعة عند بني شيبان وقفوا وقفتهم المشهودة, وأبوا أن يسلموا ما استودعهم النعمان, ولن يخالجهم الشك في أن كسرى لن يغفر لهم موقفهم هذا, فاستعدوا للقائه[2] . ثم حدث الاشتباك ووقعت الحرب التي عرفت واشتهرت باسم «يوم ذي قار» وفيه وقفت قبيلة شيبان في مواجهة كسرى وجيوشه, ولعل من أكثر المواقف عمقًا ودلالة في ذلك اليوم, أنه لما تناهى خبر الواقعة إلى الأسرى التميميين لدى بكر تناسوا عداوتهم, وازدادوا قربًا, حين عرفوا أين توجه السهام, فقالوا لآمريهم «خلّوا عنا نقاتل معكم, فإنما نذب عن أنفسنا, قالوا لهم: فإنّا نخاف ألا تناصحونا, قالوا: فدعونا نُعلّم حتى تروا مكاننا وغناءنا»[3] , وقد تحول النصر في «ذي قار» إلى مهرجان للشعر احتفلت به العرب جميعًا, فقالوا فيه الكثير, ولِمَ لا وهو حمايةٌ للديار, وصون للمحارم وحفاظ للكرامة والمجد المؤثل.

و إذا كان المجال لا يسع هنا الاستشهادَ بعشرات القصائد والأرجاز

(1).شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: د. إحسان عباس، ص ٢٥٧-٢٥٩، والعُناة الأسرى.

(2) مروج الذهب, ٢/٢٧.

(3) العقد الفريد, ٥/٢٦٤-٢٦٥.

التي قيلت في وقعة «ذي قار»، فحسبنا أن نقف على قصائد الأعشى، لتقدم لنا مؤشرات رئيسية على ذلك اليوم الخالد الذكر، إذ واكب شعر الأعشى تفاصيل الحدث بكل أبعاده وتفصيلاته منذ أن طالب كسرى بني شيبان أن يسلموه الودائع، مع رهائن يكونون لديه حتى يضمن ذلهم وخضوعهم، لما يستدعيْه فعل الكلمة من مثل هذه المواقف، فعندما أحسَّ الأعشى بوقاحة كسرى في طلبه هذا، وقف وقفته المشهودة، وخاطب كسرى بقوله:

من مُبْلغٌ كسرى إذا ما جاءه عني مآلِكَ مُخمِشاتٍ شُرَّدا
آليتُ لا نُعطيهِ من أبنائنا رُهُنًا فيفسدهم كمن قد أَفسَدا[1]

ولا يكتفى الأعشى بهذا التبليغ، بل يعلن عن استعداد العرب للقتال دفاعًا عن العزة والكرامة، ويحدد موقع المعركة في قوله:

كلا يمينَ الله حتى تُنْزلوا من رأس شاهقةٍ إلينا الأَسْودا
لَنقاتِلنّكُمُ على ما خَيَّلتْ ولَنجْعلنّ لمن بَغى وتمرَّدا
ما بين عانةَ والفراتِ كأنما حشَّ الغُواةُ بها حريقًا موقَدا[2]

ومما يستوجب الذكر أنّ للأعشى وغيره من الشعراء أو الرجاز أثرًا مهمًا في إذكاء الحس القومي عند العرب المتجسد بتوحد موقفهم تجاه كسرى بعد أن كشف هذا المتطاول نياته من قبائل العرب، وتلك هي الحقيقة التي سجلها الأعشى ضمن قوله:

(1) ديوان الأعشى الكبير، ق٣٤/ص٢٢٩، مآلك جمع مألكة؛الرسالة، ومخشمات: مغضات، شرد: أي تأتي في كل مكان لشهرتها وذيوعها.
(2) ديوان الأعشى الكبير: ق٣٤/ص٢٣١.

أرادوا نَحْتَ أثلتِنا وكُنّـــا نَمنـــعُ الخُطُمـــا [١]

وهذا النمط الشعري الذي اصطلح على تسميته (الموثبات) كان له صدى كبير في نفوس المقاتلين العرب, فقد أذكى حماسهم, وشحذ هممهم حتى حققوا النصر الذي استمد الشعراء موضوعاتهم من فيضه, ولعل فائية الأعشى أبرز ما يقع في هذا الميدان، ومنها نجتزىء هذه الأبيات:

لَمَّا التقينا كَشَفنا عن جَماجِمِنا لِيعلمـــوُا أننـــا بكـــرٌ فينـــصرِفوا
قالوا البقيّةَ والهنديُّ يحصُدُهُمْ ولا بقيـــةَ الاّ النـــارُ فانكـــشفُوا
وجُنْدُ كسرى غَداةَ الحِنْوِ صَبَّحَهُمْ منا كتائبُ تُزْجي الموتَ فانصَرفوا
وخَيلُ بكرٍ فما تَنفكُّ تطحنُهُم حتى تَوَلّوا وكادَ اليومُ ينتصِف[٢]

على أن من أدق ما يطالعنا في هذه القصيدة هو ذلك الهاجس القومي بمدلوله الشامل الذي ظل يتطلع إليه الشاعر، ويمني النفس بتحقيقه ممن يرتبطون بقومه برابطة النسب الواحد فيرسم الأعشى أبعاد هذه الصورة في قوله:

لو أنّ كلّ مَعَدٍّ كان شاركَنا في يومِ ذي قارَ ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ[٣]

وفي قصيدة أخرى يلتفت الأعشى إلى بني شيبان معظمًا وقفتهم وبلاءهم في وقعة ذي قار فقال مادحًا:

فِدًى لبني ذُهلِ بنِ شيبانَ ناقتي وراكبُهـــا يـــومَ اللِّقـــاءِ وقَلّـــتِ
هُمُ ضَرَبُوا بالحِنو حِنو قُرَاقرٍ مُقدَّمـــةَ الهـــامَرْزِ حـــتى تولّـــت[٤]

ويطول بعد ذلك أمر استقصاء بقية النصوص الشعرية التي تصب في

(1) المصدر نفسه: ق٥٦/ص٣٠١, الاثلة, بخرة طويلة.
(2) المصدر نفسه: ق٦٢/ص٣١١.
(3) المصدر نفسه: ق٦٢/ص٣١١.
(4) ديوان الأعشى الكبير, ق٤٠/ص٢٥٩.

المجرى الإيجابي للانتماء القومي الذي كان يبعث في نفوس الشعراء الراحة في إدامة أسباب الارتباط بين قبائل العرب جميعها. ولاسيما في ظل التحديات التي كانت تواجههم.

الطموح القومي المنشود:

وفي الختام يمكن القول أنّ الهاجس القومي كان يمور في نفوس أبناء القبائل العربية, وبوجه خاص عند شعرائها, إذ عبروا عنه بعفوية في الظرف الاعتيادي. أما في المواقف والتحديات التي أشعرَت العربَ بالخطر الذي يتهددهم, فإننا وجدنا الشعراء – على الرغم من تقاليد وعادات نظام القبيلة الصارم والضيق الأفق- يتجاوزونه, ويظهرون تطلعهم القومي, ملتمسين منه مصلحة قبائلهم, لأنهم عندما يدعون إلى النصرة من كل العرب فدلالته تعني كف الخصومة, وإيثار التوحد, عندئذٍ يكون العيش في ظل الانتماء القومي أمانًا واستقرارًا للجميع.

ومن النتائج المهمة الجديرة بالذكر وبالملاحظة هي حقيقة وجود نمط شعري قائم بذاته إلى جانب الأنماط الشعرية الأخرى التي اكتنفت الشعر الجاهلي, ونعني به ((شعر الحس القومي)) المعبر عن شعور أبناء العرب جميعًا, خلاف الشعر الذي يدور في فلك القبيلة, أو بمعنى آخر هو ذلك الشعر الذي سما على الانتماء القبلي, ودعا إلى التآخي والنصرة المتبادلة بين القبائل جميعها, أو كف الخصومة بينها. وبذلك نسقط رأيًا شاع بين كثير من الباحثين والدارسين, خلاصته أن الشعر الجاهلي كله شعر يدور في إطار القبيلة, على أننا لا ننكر أن التجربة القبلية قد احتلت حيزًا كبيرًا من شعر ذلك العصر, ومرد ذلك إلى عوامل بيئية, واجتماعية, جعلت الطموح القومي المنشود يبدو في أضيق نطاق, وبروزه مقترنًا ببواعث تقتضي التصريح به, على الرغم من

المقومات الأساسية المتوفرة له التي أشرنا إليها في حينه, هذه المقومات التي وظفها الرسول العربي محمد ﷺ– فيما بعد– توظيفًا سليمًا, لتجتمع عليه كلمة العرب دون استثناء, فتبرز قوميتهم بأجلى مظاهرها, تلك القومية التي عرف بها العرب ومازالوا.

المصادر والمراجع

١– الأخبار الطوال، الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية– القاهرة ط ١، ١٩٦٠.

٢– الأزمنة والأمكنة، المرزوقي: أبو علي أحمد بن محمد، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند حيدر آباد، ط١، ١٣٣٢هـ.

٣– أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: سعيد الأفغاني، دار الفكر بدمشق، ٢– ١٩٦٠م.

٤– أمية بن أبي الصلت– حياته وشعره– دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور، مطبعة العاني– بغداد– ١٩٧٥.

٥– تاريخ الأدب العربي– العصر الجاهلي– د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٦–١٩٧٤م.

٦– تاريخ الأدب العربي– قبل الإسلام– : د. نوري القيسي، د. عادل البياتي، د. مصطفى عبد اللطيف، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.

٧– تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، القاهرة، ١٩٦١م.

٨– تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبري: أبو جعفر محمد جرير، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٧م.

٩- ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، تحقيق: د. محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية بمصر، ١٩٥١م.

١٠- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي، صنعه: هاشم الطعان، بغداد، ١٩٧٠م.

١١- ديوان شعر الحادرة، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر ١٩٧٣م.

١٢- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: كرم البستاني، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت د. ت.

١٣- ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد مولوي، مطبوعات المكتب الإسلامي، ١٩٧٠م.

١٤- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني ببغداد، ١٩٦٢م.

١٥- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، د. ت.

١٦- رسائل الجاحظ (لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.

١٧- الشاعر العربي- قبل الإسلام- وتحديات العصر، د. محمود الجادر، مقالة منشورة في مجلة المورد، العدد (٢)، المجلد الخامس عشر، لسنة ١٩٨٦م.

١٨- شرح أشعار الهذليين (للسكري)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة المدني، القاهرة د.ت.

١٩- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٤م.

٢٠- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٢م.

٢١- شرح القصائد العشر، التبريزي: أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م.

٢٢- شعر الفند الزّمّاني، جمع ودراسة: د. حاتم الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي, الجزء الرابع، المجلد السابع والثلاثون لسنة ١٩٨٦م.

٢٣- شعر قيس بن زهير، جمع ودراسة: د. عادل البياتي، مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٩٧٢م.

٢٤- العقد الفريد، ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٥- الفروسية في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، مطابع دار التضامن، بغداد، ط ١، ١٩٦٤م.

٢٦- في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩م.

٢٧- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي، دار صادر، ١٩٦٥م.

المحبر، ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب، بعناية:د. إيلزه ليخن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٤٢م.

٢٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرجاء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٣٨م.

٢٩- معجم البلدان، ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م.

٣٠- المفصل في تاريخ العرب، قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.

٣١- نقائض جرير والفرزدق، أبو عبيدة: معمر بن المثنى، مطبعة بريل- ليدن ١٩٠٥م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٧م.